المبحث الثالث

الحملة العسكرية ونتائجها

المبحث الثالث

الحملة العسكرية ونتائجها

بعد انقضاء موسم الحج عام ١٢٦٤هـ بدأ قائد الحملة الشريف محمد بن عون في اتخاذ الإجراءات اللازمة لانطلاق القوات إلى إمارة (أبو عريش) والسواحل اليمنية، وبناء على الاتفاق المبرم بين توفيق باشا وحاكم مصر - كما أوضحنا في المبحث الثاني - وصلت من مصر القوات المشاركة في الحملة ممثلة في ستمائة عسكري، وخمس سفن على النحو التالي:

م	الاسم	القبطان	الحمولة
١	سفينة النصر	سحلول علي	١٢ مدفعًا بقطر ٧ملم
٢	سفينة فتح الرحمن	الريس علي	١٠ مدافع ٥ ملم
٣	سفينة فرموش	السيد عبد الرحمن	٣ مدافع بقطر ٣ ملم
٤	سفية داد مسهل	محمد	٤ مدافع بقطر ١٢ ملم
٥	الشوطة الطويلة	بيومي	مدفعان بقطر ١٢ ملم ١ مدفع بقطر ٣ ملم

وقامت حكومة الحجاز باستئجار خمس سفن هندية أخرى على النحو التالي:

م	الاسم	القبطان	الحمولة
١	سفينة التاج	مساعد	خصصت لقائد الحملة الشريف محمد بن عون وابنه علي باشا
٢	سفينة الأحمدي	عبدالرحمن	خصصت لمساعد قائد الحملة توفيق باشا
٣	سفينة الناصري	محمد	وخصصت لقوات الشريف محمد بن عون
٤	سفية مسعود	سليمان	وخصصت لقوات توفيق باشا
٥	سفينة فتح المبارك	حسن	وخصصت لقوات عبد البر طه آغا الأرناؤوطي

أما السفن اليمنية المستأجرة وعددها أربع عشرة سفينة فقد خصصت لحمل الذخائر وسائر المهمات الحربية، إضافة إلى العساكر غير النظامية، وهي من النوع المسمى (بغلة).

وبالنسبة للعساكر النظامية السلطانية وغير النظامية (الباش بوزوق) وجنود المدفعية فهي على النحو التالي:

- طابور كامل من العساكر النظامية السلطانية يتكون من ٨٢١ جنديًا، إضافة إلى الضباط، ويتم نقلهم بحرًا.
- ٩١ مدفعياً، ويتم نقلهم بحرًا.
- ١٥ مدفعيًا لمرافقة الشريف عبد الله بن شرف برًا باتجاه (أبو عريش) نفسها.
- ٨١ مدفعيًا محليًا، ويتم نقلهم بحرًا.
- ١٦٠٠ جندي نظامي (منهم ٦٠٠ جندي مصري)، ويتم نقلهم بحرًا.
- ٦٠٠ جندي من الفرسان غير النظامية، بقيادة الشريف عبد الله بن شرف برًا.
- ٦٠٠ من قوات (بيشة) المشاة، ويتم إرسالهم في معية الشريف عبد الله بن شرف برًا.
- ١٠٠ عسكري حضرمي بقيادة قائمقام نقيب الأشراف السيد إسحاق أفندي، ويتم إرسالهم بحرًا.

مجموع العساكر النظامية وغير النظامية المشاركة في الحملة = ٣٩٠٨.

وقد تَمَّ تزويد هذه القوات بالذخائر الحربية اللازمة على النحو التالي:

العدد	النـــوع
٨٠,٠٠٠	رزمة خرطوش
١٥٠٠٠	بندقية
٢٧٥٠	كرة بقطر ١٢ مم
١٠٠٠	كرة بقطر ٥ ملم
٣٠٠	كرة بقطر ٢ ملم
١٠٥	برميل من البارود الأسود

أما السفن الحربية التي سبقت الإشارة إليها فقد تم تزويدها بسبعة وثلاثين مدفعًا و(٤٢٧٩) كرة و(١٢٥) برميلاً من البارود الأسود[١].

وبعد التزود بالمؤن والأغذية والوقود انطلقت الحملة في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ١٢٦٥هـ الموافق ٢٣ مارس ١٨٤٩م في طريقها إلى السواحل اليمنية[٢].

وقد خطط للحملة أن تسير بحرًا وبرًا على النحو التالي:

١ - القوات البحرية:

ويتولى قيادتها الشريف محمد بن عون وتوفيق باشا، وهي محمولة مع الذخائر اللازمة على (٢٤) سفينة حربية، ويبلغ عدد القوات المنقولة بحرًا (٢٦٩٣) جنديًّا.

(١) إرادة داخلية، رقم ١١٠٣٤، بدون (٦) بدون تاريخ ، أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

(٢) إرادة داخلية، رقم ١١٠٣٤، وتاريخ ١٤ رجب ١٢٦٥ هـ، من الصدر الأعظم إلى رئيس الكتاب، أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

٢ - القوات البرية:

ويتولى قيادتها الشريف عبد الله بن شرف ابن عم الشريف، وخطط لها أن تسير بمحاذاة الساحل باتجاه العاصمة (أبو عريش) ، ويبلغ عدد أفرادها (١٢١٥) جندياً.

ويبدو لي أن حكومة الحجاز قد كلفت عبد الله بن شرف بهذه المهمة ؛ ليسير برًا بهذه المفرزة حتى يتمكن من محاصرة الحدود الشمالية لإمارة (أبو عريش) ويمنع أي إمكانية لنجدة الشريف من قبائل شمال المخلاف السليماني، وهذه القوات ستقوم بدور هام في إرهاب السكان وتثبيط هممهم، وجعل المنطقة بين فكي القوات البرية والبحرية.

وصل الشريف محمد بن عون بأسطوله الحربي إلى جزيرة) كمران) في يوم السبت الرابع عشر من شهر جمادى الأولى، حيث أقام بها خمسة أيام، ثم توجه بعد ذلك إلى الحديدة، ويصف لنا المؤرخ المحلي المعاصر - عاكش - كيفية دخول القوات إلى الحديدة، وردود الفعل التي قوبلت بها الحملة في تلك المدينة، فيقول: «وتوجهوا إلى الحديدة، وكان فيها الشريف الحسن - ابن أخي الشريف الحسين - وهو يتلهب غيظًا لهذه الأمور التي تذهب الوسن، فطلبوا منه الدخول إلى البندر، فاعتذر أن الشريف - أي الحسين - قد استدعيناه للوصول، ومع وصوله يقع لكم بما تريدون بلوغ المأمول، وكان يود وقوفهم تحت الرأي والمراد، حتى يصل الشريف ويكون هو المتصدي لهذه الأمور في الإصدار والإيراد، ولكن رأوا وصولهم إلى هذه البلاد على هذه الصفة من الغنائم، ويرون التراخي عن ذلك فيه ما فيه، ولايردهم عن مقصدهم لائم، فدخلوا البندر يوم الخميس من الشهر المذكور، وكانت طريقهم إلى القلعة الشمالية،

وبها جملة من الأرتاب[١]، وكان من الأتراك التعرض لأهل القلعة بأسباب، فوقعت المناوشة بالقتال، واستولى الترك على القلعة في أسرع حال، وقتلوا نحو العشرين من العسكر، وأسروا من بقي، وكان ذلك خلاف المراد في الظاهر من الشريف الحسن، والشريف محمد بن عون وكبار العساكر، والله أعلم بما تجنه الضمائر»[٢].

كان الشريف الحسين في أثناء تلك التطورات مقيمًا في (المخا)، وحينما علم بوصول الحملة جاء إلى الحديدة، وهناك اُستقبل ببرود من قائد الحملة الذي لم يسمح له بدخول المدينة، وأرسل إليه مساعده توفيق باشا، وبعد مفاوضات مبدئية وافق الشريف محمد بن عون على مقابلة الشريف الحسين[٣].

أمَّا القوات البرية فقد واصلت مسيرها حتى تمكنت من دخول (أبو عريش)، وحيث إن أخبار سقوط الحديدة في أيدي القوات العثمانية قد انتشر في جميع أنحاء المخلاف السليماني فإن عامل (أبو عريش) الشريف حيدر بن علي لم يتخذ أي إجراء دفاعي ضد القوات الغازية، بل على العكس من ذلك تمامًا، حيث رحب بها وقدم لجميع القوات الضيافة اللازمة، وأدخلها إلى القلاع، وساعد الحملة بإحضار المطلوب من الجمال[٤]، بل قام بمصاحبة القوات هو وأولاده حتى دخولها الحديدة[٥].

---

(١) الأرتاب: المدافعين.

(٢) عاكش، الديباج الخسرواني، ٤٥٨، ٤٥٩.

(٣) المرجع السابق، ٤٥٩.

(٤) وثيقة عربية بدون رقم، وتاريخ ٢٤ رجب ١٢٦٥ هـ، من الشريف عبد الله بن شرف إلى والي جدة حسيب باشا، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

(٥) وثيقة عربية بدون رقم، وتاريخ سلخ رجب ١٢٦٥ هـ، من الشريف حيدر بن علي بن حيدر إلى والي جدة حسيب باشا، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

انتهى الاجتماع بين قائد الحملة محمد بن عون والشريف الحسين بتسليم الشريف سلطاته كحاكم للسواحل اليمنية، وحصرت منطقة نفوذه بإمارة (أبو عريش) فقط بشرط أن يكون بها حامية عثمانية كرمز للدولة العثمانية، وخصص للشريف وبقية أفراد أسرته وعشيرته من الأشراف رواتب شهرية من دخل ميناء الحديدة[١]، ثم منح (رتبة أمير الأمراء) التي سبق أن صدر بها مرسوم سلطاني في العام السابق، وتأخر إبلاغ الشريف بها نتيجة لتطورات الأوضاع أثناء الحرب التي قامت بينه وبين إمام صنعاء[٢].

بعد استقرار الأوضاع قام الشريف محمد بن عون بسلسلة من الإجراءات السياسية والإدارية، حيث بدأ في استمالة إمام صنعاء محمد بن يحيى، وبعد العديد من السفارات والمراسلات بين الطرفين نجح محمد بن عون في إقناع الإمام بالقدوم إلى الحديدة، حيث وصلها مع وفده الرسمي في يوم الخميس الموافق ١٥ شعبان ١٢٦٥ هـ، وانتهت المفاوضات بقبوله التبعية العثمانية[٣]، ومن ثم أرسل محمد بن عون مساعده توفيق باشا، ومعه بعض القوات إلى صنعاء، وبعد استقراره هناك بعدة أيام ثارت ضد الإمام وحلفائه الجدد من العثمانيين ثورة شعبية عارمة أدت إلى خروج توفيق باشا بقواته عائداً إلى الحديدة، حيث كان ذلك سبباً في تأخير استيلاء العثمانيين على صنعاء حوالي ربع قرن من الزمان[٤].

---

(١) عاكش، المرجع السابق، ٤٥٩.

(٢) وثيقة بدون رقم، وتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٦٥ هـ، من عبد الله بن شرف إلى الصدر الأعظم، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

(٣) إرادة داخلية رقم ٤٣٣٢، وتاريخ ١٦ شعبان ١٢٦٥ هـ، من الشريف محمد بن عون إلى والي جدة حسيب باشا، إرشيف رئاسة الوزراء إستانبول.

(٤) حوليات يمانية، ١٧١ وما بعدها.

كما قام الشريف محمد بن عون باستدعاء حاكم (القحرية) الشيخ علي حميدة، واستطاع أن يستميله، ليعلن تأييده للحملة، ومن ثم أصدر قراره بتثبيته في منصبه[١].

أمَّا من الناحية الإدارية والتنظيمية فقد قام الشريف محمد بن عون بتقسيم إيالة اليمن إلى قائمقاميتين على النحو التالي:

١ - قائمقامية الحديدة، ويتبعها ميناء (اللحية) وما يليه من المناطق الداخلية، مثل (الزيدية) و (الضحي) ، وأصدر قرارًا بتعيين توفيق باشا مسؤولاً عن هذه المنطقة مع القوات اللازمة للحماية.

٢ - قائمقامية المخا، ويتبعها (زبيد) و (بيت الفقيه) و (حيس)، وجعل عليها ابن عمه عبد الله بن شرف، ومعه ما يكفيه من القوات العسكرية[٢].

وقد برر محمد بن عون قيامه بتقسيم الإيالة إلى قسمين بقوله: « ... ولقد عُين صاحب العزة توفيق باشا برتبة أمير أمراء قائمقام على الحديدة، ونظرًا لأنه يوجد كثير من عساكر العربان بجانب (المخا) التي تعد من أركان الولاية ؛ ولأن سفن الدول الكبرى كثيرًا ما تمر عليها في الذهاب والإياب، ونظرًا لأن أغلب نواحي صنعاء مجاورة (لمخا) فقد حرصت على أن أعرف قواعد العربان... ولذلك فقد رأيت من المناسب تعيين ابن عمي (الداعي لكم) عبدالله باشا ابن شرف قائمقام على (مخا) وتوابعها، وذلك لتسهيل إجراء الأمور، ولتحقيق مصلحة السلطان»[٣] .

(١ المرجع السابق، ١٦٨.

(٢) وثيقة بدون رقم وتاريخ ٢٥ رجب ١٢٦٥ هـ، من الشريف محمد بن عون إلى والي جدة حسيب باشا، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

(٣) وثيقة بدون رقم، وتاريخ تمام شعبان ١٢٦٥ هـ، من الشريف محمد بن عون إلى حسيب باشا، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

انظر أيضًا: عاكش، المرجع السابق، ٤٦٠ playfair, 154. -

استقبل الباب العالي هذا النجاح غير المتوقع للحملة بابتهاج عظيم، وعُقد اجتماع خاص لمجلس الوزراء في بيت الصدر الأعظم الصيفي، ودارت المناقشات حول العديد من القضايا المتعلقة بالمنطقة من الناحية الإدارية والعسكرية، وقد رفع المجلس تقريرًا إلى السلطان يتضمن ما يلي:

١ - ضرورة تحديد راتب الشريف حسين، وشجب تصرفات توفيق باشا التعسفية في المنطقة، والإعلان عن رضا الحكومة عما تم التوصل إليه في إمارة (أبو عريش) والسواحل اليمنية في مدة قصيرة وبدون مشقة بالنسبة لحجم المسألة وصعوبتها.

٢ - ضرورة تنظيم الإدراة المحلية في المنطقة، ووضع قواعد جديدة منظمة ودقيقة حتى لايؤدي ترك الحبل على الغارب إلى اختلال ومضاعفات سياسية.

٣ - التأكيد على بقاء بعض القوات النظامية كجيش احتياطي في السواحل اليمنية على الرغم من أن القوات الموجودة في الحجاز تكفي لحماية الناحيتين، وقد صرف النظر عن هذه المادة مؤقتًا.

٤ - اتفق الوزراء على ضرورة تقوية جيش الحجاز واليمن، وزيادة عدد قوّاته فيما بعد، وذلك بعد إجراء تعداد سكان ولاية بغداد، حيث يمكن الحصول من هناك على أعداد وفيرة من الجنود المناسبين للحياة في المناطق الحارة.

٥ - لم يكن المجلس على علم عما إذا كان الشريف قد عاد بالقوات إلى جدة، وليس هناك معلومات محددة عن العدد المتبقي من القوات في اليمن، وقد أُرجئ البحث في هذه المسألة حتى وصول المعلومات.

٦ - بحث المجلس موضوع اختيار والي اليمن، وطرحت الأسماء التالية:

أ - شريف محمد رائف، والي جدة السابق قبل حسيب باشا، وقد تم استبعاده نظرًا لفشله في إدارة ولاية الحجاز.

ب - داود باشا، شيخ الحرم النبوي، ورغم إجماع الآراء على صلاحيته لهذا المنصب لاستقامته وورعه، ولكن تراجعت الآراء عنه خوفًا من أن يرفض ترك المنصب المبارك الذي هو فيه حاليًا.

جـ - أشرف بك، المبعوث العثماني إلى الشريف لمرات عديدة، واتفق الجميع على صلاحيته وعفة يده وخبرته بالمنطقة.

د - الفريق محمود باشا قائد عام القوات في الحجاز، وهو مشهور بالحزم والاستقامة.

وقد رجحت كفة محمود باشا أخيرًا، واقترح على السلطان تعيينه وإصدار قرار بإسناد رتبة الوزارة إليه وتعيينه واليًا على السواحل اليمنية (اليمن).

٧ - ناقش المجلس موضوع التدخل الأجنبي في اليمن، وأكد على ضرورة الكتابة إلى جميع الموظفين المدنيين والعسكريين في المنطقة بألا يسمحوا بالتدخل الأجنبي سواء ظاهريًا أو باطنيًا، وأن يكونوا على علم بكافة القواعد الخاصة بذلك.

٨ - الإنعام بوسام على الشريف محمد بن عون، وتدبير المصاريف والنفقات اللازمة[1].

(١) إرادة داخلية رقم ١١٠٣٤ وتاريخ ١٧ رمضان ١٢٦٥ هـ، من الصدر الأعظم إلى السلطان، إرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

وبناءً على ذلك فقد صدر المرسوم السلطاني بتعيين محمود باشا واليًا على اليمن بعد وفاة توفيق باشا الذي لم يمكث في منصبه سوى أشهر قليلة، ثم توفي فجأة بعد حملته إلى بلاد (بني قيس)، وبقي محمود باشا في منصبه عدة أشهر، حيث توفي أيضًا بعد قيامه بحملة تأديبية ضد بعض القبائل في مدينة (زبيد)، ومن ثم قام الباب العالي بتعيين مصطفى صبري واليًا على اليمن، أما الشريف محمد بن عون فقد عاد بقواته إلى الحجاز[١]، وقد دخلت المنطقة في مرحلة جديدة من تاريخها.

عاد الشريف الحسين بن علي بن حيدر إلى (أبو عريش) بعد أن تم تحديد نطاق إمارته فيما بين (مور) إلى (صبيا)[٢]، وأصبح يعاني الأمرّين من تسلط الأتراك على بلاده، وحيث لم يتم الوفاء له بما سبق الاتفاق عليه من المقررات المالية، وللإهمال الذي واجهه من الولاة العثمانيين في المنطقة قرر الذهاب لمقابلة أمير مكة محمد بن عون، ووالي جدة؛ ليشرح لهما ما يلاقيه من عنت الولاة العثمانيين وعدم التزامهم بمستحقاته وجميع أفراد عشيرته.

غادر الشريف (أبو عريش) إلى جدة، وحيث لم يمكن إنهاء قضيته هناك سافر إلى إستانبول، حيث وصلها في ٢٤ رجب ١٢٦٦ هـ، ثم التقى بالسلطان في الحادي عشر من شهر ذي الحجة من نفس العام، ويشير - عاكش - إلى أن السلطان قد عرض على الشريف أن يكون واليًا على اليمن كله، ولكنه رفض ذلك، وقرر التخلي عن السياسة، ورضي أن يكون له مقرر من خزينة جدة؛ لأنه آثر الاستقرار في مكة المكرمة، حيث بقي فيها إلى أن توفي في يوم السبت الموافق للسابع من شهر محرم عام ١٢٧٢هـ[٣].

(١) عاكش، المرجع السابق، ٤٦٥.

(٢) عاكش، عقود الدرر ٣٦٣/١.

(٣) عاكش، عقود الدرر ٣٦٤/١.